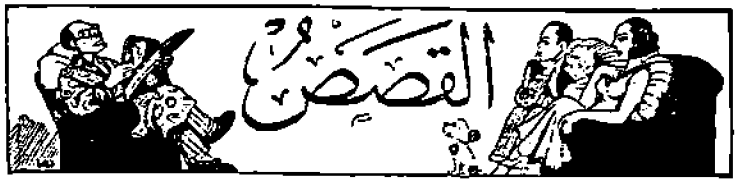

فتـــوة العطوف

للأستاذ نجيب محفوظ

عند هبوط المساء غادر المعلم « بيومى » الفوال نقطة بوليس الحسينية يحمل « إنذار التشرد » ، يكاد يتصدع صدره من الغضب والغيظ . وكان يرغى ويزبد ويتمتم ويدمدم بأصوات كالخوار ، خشنة مبهمة ، ما زالت تعلو وتعنز كلما باعدت الخطا بينه وبين نقطة البوليس ، حتى صارت فى ميدان فاروق لعناً وسباباً وقذفاً صريحاً مخيفاً عنيفاً . وجعل يهز قبضة يده الغليظة فى الهواء مهدداً متوعداً ، ويدير فى الفضاء عينين يتطاير منهما الشرر صيرهما الغضب بجمرتين ملتهبتين . فوقع بصره على (تاكسى) واقف بالميدان ، فقصد إليه ، ورآه السائق — وكان يعرفه — ففتح له الباب ، فاندفع إلى الداخل وارتمى إلى جانبه . وأحس السائق بالثورة المضطرمة فى صدر صاحبه ، فسأله عما يقلقه ، ووجد المعلم فى السؤال متنفساً من صدره ، فرمى إليه بالإنذار وهو يصيح غاضباً : « أنظر كيف تعاملنى الحكومة السنية ! » ، وشبك يديه على صدره وقال بلهجة تدل على السخرية والحنق : « ألا ترى أنه يحتم علىّ أن أجد عملاً فى ظرف عشرين يوماً ، أو يزج بى فى السجن مرة أخرى؟ ما شاء الله ! » . واشتد اكفهرار وجهه ، وأرسل من تحت حاجبيه الكثيفين نظرة شريرة ، وكان صاحبه ساهما متفكراً يردد ناظريه بين وجه المعلم المكفهر والإنذار المبسوط بين يديه

وكانت هيئة المعلم بيومى من الهيئات التى لا يمكن أن تقتحمها العين ، أو تمر بها دون التفات إليها ، لأن صورته كانت حافلة بآى القوة والجسارة . نعم كان مظهره الرث وملابسه البالية القذرة تنطق بما هو عليه من فقر وبؤس ، ولكن هيكله الصلب وصدره العريض وعضلاته المفتولة دلت على القوة والبأس ، ونظرة عينيه وإيماءاته توحى بالكبرياء والعنف ، وتلك الندوب تكتنف وجهه وجبينه، وآثار من طعن سكين فى صفحة عنقه تثبت أنه خاض معارك عنيفة شديدة الهول ، ولذلك أحاط به فى غضبه صمت رهيب ألزم ألسنة الأقربين من سائق (التاكسى) الجمود الثقيل . وقد التفت إلى صاحبه وقال فى غيظ وحنق : « أنا ... أنا بيومى الفوال . تتنكر لى الدنيا إلى هذا الحد؟ ! » وكبر عليه الأمر فجعل يضرب كفا بكف ولسانه لا يكف من القذف والتهديد ، وأكثر من القذف والتهديد . وقليلاً ما كان يحرك لسانه ساعة الغضب فيما مضي من زمانه . فكان إذا غضب انطوى على الغضب حتي ينزل عقابه الصارم بعدوه، ولكن لم يبق له من ماضيه ذلك إلا ذكريات تطوف بين الحين والحين برأسه المثقل . فتنشر فى ظلماته ضياء منيراً مقتبساً من عز الماضى ومجده وسلطانه

كانت نشأة المعلم بيومى فى العطوف . وقد شهد صباه الأول على جبارته الطبيعية ، فكان من خيرة صبيان الأعور « فتوة » العطوف الذى أرهب السكان وأعجز رجال الأمن . يجلس بين يديه يستمع إلى قصص مغامراته ويشهد مشاجراته ويخرج فى مؤخرة عصابته إذا نفرت لقتال عصابات الدراسة أو الحسينيه عند سفح المقطم ، يحمل فى حجره « الزلط » « وقطع الزجاج » يمد بهما المتعاركين من قومه ويلاحظ فنون قتالهم من كثب ويتلقى حماسة للقتال وأعمال الجرأة فما شارف الثامنة عشرة حتى اشتد ساعده وانفتلت عضلاته ، ومهر مهارة عجيبة فى الضرب « بالروسية » والعصا والسكين والكرسى ؛ واشترك فى معارك فردية وجماعية

إلى ساعات يزوّر فيها خطبة ، بل تأتيه الجمل عفو الخاطر ، وقد تكون فى أسلوبها عادية ، ولكن موقفه الحامي يجعل لها شأناً آخر ، أما الشاعر فلا بد له من سويعات يجمع فيها أشتات فكره ، ثم يدبج بيراعته صيحاته ، فإن كان شاعراً حقاً عبقرياً استطاع أن ينتصب منبر الخطيب ويستأثر بالجماهير لترديد شعره وقراءته ، كالشاعر الإنجليزى « كبلنج » ، وإلا فهو بالطبع سيمنى بالفشل ، ولعل هذا هو السر فى أنه لا ينزل إلى ميدان الشعر فى أيام الحروب إلا من وثق من نفسه أنه يستطيع بإلهامه وجودة شعره أن يستأثر بقلوب الجماهير ويحملهم على قراءة شعره

إذاً ، فالحرب تشحذ ملكات الشعر وتجودها ، غير أنها تمتاز بأنه لا يقوى على الظهور فيها والشيوع إلا الشعر العبقرى الحق فحسب ، وأنا فى انتظار رأى الأستاذ الجليل والسلام

محيي زيادة
عضو البعثة اليمانية

١٥ ، ٣٨

فأبلى فيها أحسن البلاء . وذاع أمره كمتمارك شديد المراس ، يقدم على مقاتلة عشرات الرجال بقلب لا يهاب الموت ، ويدمن مقهى كاملاً إذا حدثت النادل نفسه بمطالبته بثمن مشروب ، وأكبر الأعور فيه هذه الصفات فاصطفاه وآخاه وجعله ساعده الأيمن ، وقاسمه الغنائم والأسلاب . ومات الأعور فخلفه على أربكة « الفتوة » دون شريك . وأبى طموحه عليه الهدوء والراحة ؛ فتحدى فتوة الحسينية وظهر عليه ، وقاتل فتوة الدراسة فهزمه ، وخرج بجموعه إلى الوايلية فأذل كبيرها ومزق جموعه شر ممزق ، ودوى اسمه فى تلك الأحياء دوى نذير الغارات ، واستكانت له نفوس الفتوات ، وأفاد من سلطانه فائدة رمقتها عيون الحسد جيلاً طويلاً . فجعل مركزه قهوة غزال بالخرنفش حيث يجتمع بأنصاره وصبيانه . وفرض الأتاوة على كبار الأغنياء والتجار والقهوجية وشركة سوارس يؤدونها إليه صاغرين ، ومن يتردد عن دفع ما يطلب منه عرض نفسه وما يملك للهلاك المبين . هذا غير ما كان يؤجر له من أعمال الانتقام والتهديد وحماية بعض النسوة من أهل الهوى ، وتنافس كثيرون فى التودد إليه بإهدائه الهدايا الثمينة ، فكان يتقبلها تقبل الزاهد فيها وهو من غير الشاكرين . وعاش المعلم بيومى فى ظل سلطانه عيشة راضية فى بلهنية ونعيم . يلبس الجلباب الحرير والعباءة من وبر الجمل ، ويتلفع بالشال الكشمير الفاخر ويركب الدوكار تجره الجياد المطهمة . ثم عشق « عالمة » فتزوج منها وكان فرحه فرح أهل الجالية والعطوف والدراسة جميعاً ، وانتظمت «زفته» الفتوات من جميع الأحياء وعدداً عديداً من أصحاب « السوابق » وحاملى الإنذارات والمترددين على السجون . . . وأحيا ليالى العرس الشيخ ندا وعبد اللطيف البنا وبمبه كشر . ثم ما زال يعلو نجمه يوماً بعد يوم حتى تسنم ذروة المجد فى الانتخابات الأولى عام ١٩٢٤ . فقد أقر بنفوذه كثير من رجالات السياسة فى مصر وسموا إليه يرجون نصرته لهم ويساومون على شراء أصوات أنصاره وأتباعه، وشهدت قهوة غزال محضر باشوات وبيكوات يجلسون إلى المعلم بيومى الفوال متوددين متحادثين . وكان المعلم يصغى لهم ويستولى على نفوسهم ، ولكنه فى يوم الانتخابات ذهب وصحبه إلى أقسام البوليس يعطون أصواتهم لمرشحى سعد زغلول

ومنذ ذاك العهد وهو يسمى أولئك الباشوات والبيكوات « بالكروديات » على أنه كان يباهى باتصالاته بهم فى أحايين كثيرة فيقول فى أثناء حديثه « وقال لى الباشا كيت وكيت » وقلت للباشا كيت وكيت

تلك أيام خلت . . . وخلفت وراءها دهراً قاسياً شديد الظلمات . فما يدرى أولئك الفتوات إلا والبوليس يضيق بهم ذرعاً ويشمر للقضاء على أعمالهم ، وكان من سياسته أن قذف الحسينية بضابط شاب لم تشهد الداخلية له من قبل نظيراً ، سواء فى قوته أم فى شجاعته وشدة عناده . وكان يعلم أن هدفه الأول هو المعلم بيومى الفوال ، فلم يحد عنه ، ولم ينتظر الأدلة القانونية لأنه كان يعلم أن أحداً من الناس لن تواتيه شجاعته على الشهادة ضده . فهاجمه بجنوده بغتة وقاده إلى النقطة وأمر الجنود بضربه ضرباً مبرحاً . وأصيب المعلم بذهول شديد لذاك البدوان الجرىء . فما كان من الضابط إلا أن أعاد الكرة مرة ومرتين حتى كسر شوكته . ثم جعل يسوقه أمامه محاطاً بجموع الجند الشاكى السلاح يصفعونه فى كل منعطف طريق ، ويركلونه أمام كل قهوة وينزلون بمن يظهر لهم من فتيانه أشد العقاب، فأفاق الناس من غشيتهم وانحلت عقدة الذعر الممسكة بألسنتهم فهرعوا إلى رجل الأمن يشكون ويستعدون، ووجد الرجل الدليل الذى يطلبه وزج بالمعلم فى غيابات السجون يذوق أشد الأهوال والآلام . وهكذا أخذ المعلم بالإرهاب الذى أخذ به الناس جميعاً . وقضى فى السجن بضع سنين . ولما فارقه لم يجد أحداً من الفتوات فى استقباله يهنئه ويقول له : « السجن للجدعان » فقد لاذ كل منهم بسبيله ، منهم من سجن ، ومنهم من هجر الحسينية ، ومنهم من راض نفسه على العمل كما يعمل الناس جميعاً سعياً وراء الرزق . فألفى المعلم عالمه مهجوراً كئيباً ، وبعده ذكرى أليمة لا يترحم عليها إنسان ، حتى زوجه ضاقت بفقره وتسوله فهجرته وعادت إلى بنات فنها فى شارع محمد على . وطحنت الآلام تلك النفس الجبارة العاتية . وترنح صاحبها تحت أثقال الهموم لا يستطيع أن يجأر بصوت الشكوى خشية عيون البوليس المحدقة به من كل جانب، وظل على حزنه وألمه حتى تلقى إنذار التشرد الذى يخيره بين العمل أو السجن

طافت برأسه ـ فى ساعة بؤسه تلك ـ صور من أيام مجده تراءت راقصة أمام ناظريه خلال أغشية الحزن والألم . وكان صاحبه السائق فى تلك الأثناء يراقبه بطرف خفى وأصابه تعبث بالإنذار الذى أحدث كل ذاك النضب . وكان يدير أمراً هاماً

فى عقله . فلما قلبه على أوجهه المحتملة التفت إلى المعلم وسأله :

— ماذا تقول يا معلم لو عرض عليك عمل يدفع عنك غائلة البوليس ؟ ...

وحدجه المعلم بنظرة غريبة دون أن يفوه بكلمة . وتشجع السائق بصمته فاستدرك قائلاً :

— سبق أن علمتك قيادة السيارة . وهى صنعة فى اليد تعمر بيوتاً ، وما من شك فى أنك خبير بالطرق والمواصلات . وأستطيع أن أدلك على عمل فى « الجراج » الذى أعمل فيه على شرط أن تتنازل وترضى ... فما رأيك يا معلم ؟

ولم يسارع المعلم إلى الفرح كما ينبغى لأى رجل فى مكانه ، لأن العمل كان التجربة الوحيدة التى لم يعرفها ، وهو لم يكن شيئاً عظيماً قط فى نظر الفتوات المحترفين ، فتوجس منه خيفة ، ولكنه لم يكن فى حالة يستطيع معها رفض ما يعرض عليه ما دام العمل هو المنقذ الوحيد له من السجن . فقال لصاحبه بلهجة لم تخل من الامتعاض : وهل من الممكن أن ألحق بهذا العمل قبل مضى العشرين يوماً ؟

— بغير شك ولا ينقصك إلا شىء واحد . فتساءل المعلم قائلاً :

— وما هو ؟ ...

— بذلة يامعلم ، لأنه لا يمكن أن تكون «شوفيراً» بغير بذلة . فاشتر بذلة أو أجرها أو استعرها كيفما اتفق . ولكن لا بد من بذلة

ومال إلى التفكير فى الأمر تفكيراً جدياً ووجد نفسه يحاول حل مسألة العثور على بذلة . ولكنه لم يدر له بخلد أن يجد ضالته عند صاحبه السائق أو عند أحد من أقرانه ، لأنه كان يعلم أنهم لا يملكون سوى البذلة التى يلبسونها . على أنه لم ييأس كذلك من العثور على بذلة . فعليه بالأفندية الذين كانوا إلى عهد قريب يثقون أذاه ويرجون خيره ، فلا يمكن أن يضنوا عليه ببذلة قديمة ناطت الأقدار باقتنائها قوام حياته . واعترض على أولئك الأفندية سبلهم وطرق أبوابهم ورجاهم بلهجة غير التى ألفوا أن يسمعوها منه ، أن يتنازلوا له عن بذلة قديمة ، ولكنهم ردوا عليه بأوجه من الأعذار لا تنفد ، فقال فريق إنهم لا يملكون سوى بذلة واحدة غير التى يلبسونها ، واعتذر فريق آخر بسوء الحال وكثرة العيال ووطأة الأزمة . وقال واحد بقحة إن خادمه أحق ببذلته القديمة . وعجب المعلم لأولئك اللؤماء واهتاجه الغضب اهتياجاً شديداً وقال لنفسه بإصرار وعناد « ما دامت البذلة تنقذنى من السجن فسأحصل عليها مهما كلفنى ذلك من المناد » وكان يتخبط فى الطريق على غير هدى حين وجد نفسه اتفاقاً أمام دكان كواء عند مبتدأ شارع السبيل ، فألقى عليها نظرة سريعة لصقت بالبذلة المعلقة ، فتراخت ساقاه عن المشى وأسند ظهره إلى شجرة قريبة ومضى يتفرس فى البدل المتراصة تفرس الجائع المنهوم فى فرن الحانى المليء بالشواء من اللحوم ، ثم عاين المكان فرأى الدكان قائماً إلى جانب جراج تحدها من الخلف صحراء العيون . ودارت برأسه خواطر محمومة عنيفة وعزم عزماً أكيداً

وأصبح الصباح وجاء الكواء يفتح دكانه فما راعه إلا أن رأى فى ظهرها ثغرة فانخلع قلبه وهرع إلى ثياب زبائنه . ووجدها كاملة إلا بذلة واحدة ... فكانت دهشته قدر انزعاجه !

وصار المعلم بيوى سائق تاكسى ولم يعد لضابط نقطة الحسينية من سلطان عليه ، ولأمر ما اختار الجيزة ميداناً لعمله فاراً بالبذلة التى لم تهده الحيلة إلى صبغها أو قلبها كما كان ينبغى أن يفعل اللص الماهر . وما كان يصبر على نظام العمل لولا أن السجن كان عوده على ما هو أشد إيلاماً ومقتاً ، فرضى كارهاً أن يلبى النداء ويحمل الراكبين ، ويبدى إجترامه لمن كان بالأمس ينظر إليهم شزراً ويدعوهم « بالكرديات » ...

ولم تخل حياته فى ذلك المهجر من حوادث ، ففى ذات أصيل وكان مضى عليه ما يقارب الشهر فى عمله . وكان ينتظر فى موقفه ، برز رجل وجيه من باب الفانتزيو وناداه ، ولبى المعلم مسرعاً وترك مقعده ليفتح الباب للسيد الوجيه ومضت دقيقة وهو ينتظر والرجل لا يتحرك ، فتعجب المعلم للأمر ونظر إلى الرجل فرآه ينظر إليه بإنكار بل رآه يتم النظر فى بذلته . وخفق قلب المعلم واضطرب وأحس كمن وقع فى فخ ، وهم بالتحرك ولكن الرجل دنا منه وأمسك باليافة بسرعة وثناها ليقرأ اسم الطرازى ثم قبض على ذراع المعلم وصاح به بغضب :

— قف يا لص ... من أين لك هذه البذلة ؟

ونادى الشرطى بصوت عال . فحدجه المعلم بنظرة نارية وكان يستطيع بغير شك أن يبطش به لو أراد ، ولكنه استشعر يأساً غريباً خرج به عن وعيه فما يدرى إلا والشرطى يقبض عليه ...

والظاهر أن الحظ الذى حالفه قديماً تخلى عنه إلى الأبد ، وإنه ليعانى الآن آلام السجن ؛ والله وحده يعلم ما هو صانع به بعد ذلك

نجيب محفوظ